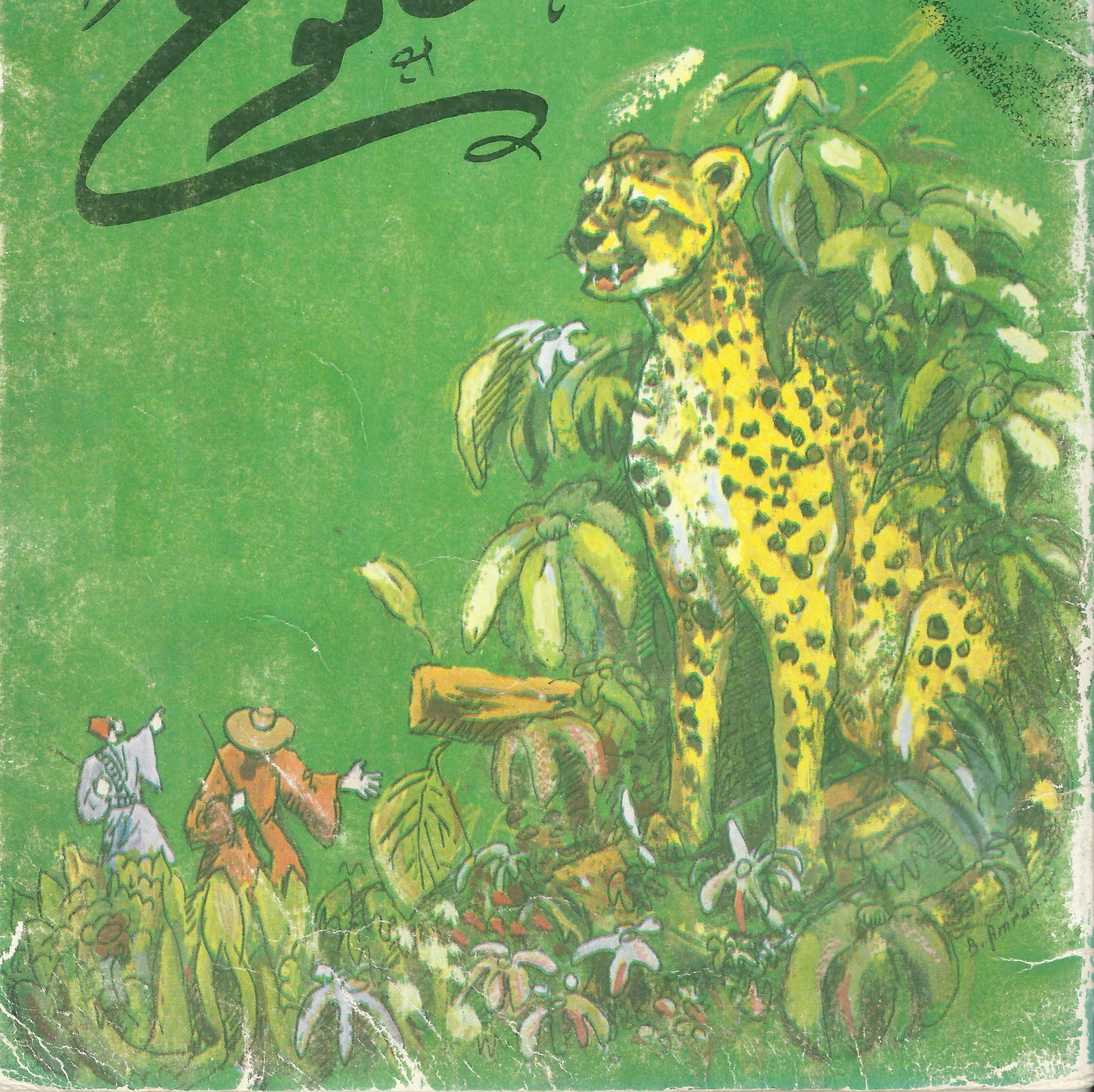
الحطّاب الطّموح





الحطّاب الطّموح

تأليف

عبد الرّحيم الكتّاني و عبد الحقّ الكتّاني

الدار التونسية للنشر

الشركة الجديدة دار الثقافة
المغرب

«عَيْنُ اللَّوْحِ» قَرْيَةٌ جَمِيلَةٌ مِنْ قُرى الأَطْلَسِ المُتَوَسِّطِ ، فِيها عُيُونٌ كَثِيرَةٌ تَحُفُّها أَشْجارُ أَرْزٍ باسِقَةٌ ، وَتُطِلُّ عَلَيْها جِبالٌ شامِخَةٌ يَكادُ الثَّلْجُ يَكْسُو قِمَمَها طِيلَةَ السَّنَةِ .

ولا تَظُنَّ ، أَيُّها الوَلَدُ ، أَنَّ الأَطْفالَ يَتَضايَقُونَ فِيها مِنْ زَمْهَرِيرِ فَصْلِ الشِّتاءِ . كَلَّا ! إِنَّ أَحَبَّ الفُصُولِ إِلى نُفُوسِهِمْ لَفَصْلُ الشِّتاءِ ، وإِنَّ أَحْلَى الذِّكْرَياتِ لَتِلْكَ الَّتي يَحْفَظُونَها مِنْ سَمَراتِهِمْ مَعَ أُمَّهاتِهِمْ وَجَدَّاتِهِمْ حِينَ يَقْصُصْنَ عَلَيْهِمْ أَساطِيرَ الأَطْلَسِ فِي كَنَفِ اللَّيْلِ البارِدِ المُظْلِمِ .

تَخَيَّلْ أَنَّ الثَّلْجَ يَتَساقَطُ مِنَ السَّماءِ وكَأَنَّهُ سَبائِخُ قُطْنٍ ناصِعَةٌ تُضِيءُ بِبَياضِها ما حَوْلَ القَرْيَةِ الهادِئَةِ الرابِضَةِ بَيْنَ الهِضابِ ؛ إِنَّ الثَّلْجَ لَنَسَّاجٌ غَرِيبُ الأَطْوارِ ، يُعْجِبُهُ العَمَلُ فِي اللَّيْلِ ، فَما يُصْبِحُ الصَّباحُ إِلَّا وقَدْ أَلْبَسَ الجِبالَ والوَهَداتِ

حُلَّةً قشيبةً تُعجبُ النَّاظِرينَ ، وقدْ عمَّمَ الأَشجارَ بعمائِمَ خفيفةٍ كأَنَّها مِنْ حريرٍ .

وهوَ لَا يُحِبُّ أنْ ينظُرهُ الأطفالُ حِينَ يعمَلُ ، ولِذا يُرسِلُ بَرْداً قارساً ، فيضطرُّهُمْ إلى الالْتِفافِ حَوْلَ مواقِـدِ النَّارِ فيَحلُو لَهمُ السَّمَرُ ويُحسِنُونَ الاستِماعَ .

وما أجمَلَ الأَساطيرَ الَّتي يَسْمَعُونَها حِينَما تكُونُ النَّارُ زاخِرةً في المَنازِلِ ذاتِ الأبوابِ المُغلَّقةِ دُونَ الـبَرْدِ ودُونَ الذِّئابِ والثَّعالِبِ والفُهُودِ السَّوْداءِ . فأَنْصِتْ معَهُمْ ، أَيُّهـا الوَلَدُ إلى قِصَّةِ مَيْمُونٍ الحَطَّابِ الَّذي تبدَّلَ مِنْ حالٍ إلى حالٍ حَتَّى صارَ أَسْعَدَ النَّاسِ ورَضِيَ بحالِهِ رِضاً كامِلاً وأَحبَّ الحياةَ وحبَّبهـا لِبَنيهِ وذَويهِ .

كانَتْ « عينُ اللَّوحِ » خالِيَةً مِنَ السُّكَّانِ لَيسَ فِيهـا إلَّا كُوخُ حطَّابٍ اسْمُهُ مَيْمُونٌ . وكانَ مَيْمُونٌ أَعزبَ لَا يُفكِّرُ في الزَّواجِ ، يَقضِي بَياضَ يوْمِهِ في قَطْعِ الأَشجارِ وتجريدِها مِنْ فُرُوعِها وأَغصانِها وتَفصِيلِها أَلْواحاً . وحِينَما يُرْخِي اللَّيـلُ

سُدُولَهُ كانَ مَيْمُونٌ يَأْوِي إِلى كُوخِهِ المَبْنِيِّ مِنْ لَوْحِ الخَشَبِ ، فَيُشْعِلُ النَّارَ لِيَسْتَدْفِئَ ، ثُمَّ يَقْتَاتُ مِنْ زَادِهِ القَلِيلِ الَّذِي كانَ يَشْتَرِيهِ مِنَ البَاعَةِ المُتَجَوِّلِينَ الَّذِينَ كانُوا يَمُرُّونَ بِهِ مِنْ حِينٍ لِآخَرَ .

وَكانَ فِي لَيالِي الشِّتاءِ الحالِكَةِ يُحَصِّنُ نَفْسَهُ فِي بَيْتِهِ المُتَواضِعِ كَيْلا تَقْتَحِمَهُ عَلَيْهِ الفُهُودُ الجائِعَةُ الضَّارِيَةُ . فَكانَ يَحْفِرُ حَوْلَ الكُوخِ خَنْدَقاً عَمِيقاً عَرِيضاً وَيَغْرِسُ على جَنَباتِهِ أَوْتاداً حادَّةَ الرُّؤُوسِ مُتَقارِبَةً فِي شَكْلِ سِياجٍ مَتِينٍ لا تَسْتَطِيعُ الوُحُوشُ أَنْ تَتَخَطَّاهُ . وَكانَ مَيْمُونٌ بَعْدَ دُخُولِهِ بَيْتَهُ يُدَعِّمُ البابَ بِمِتْراسٍ ضَخْمٍ غَلِيظٍ صَنَعَهُ مِنْ فَرْعِ أَرْزَةٍ . فَكانَتِ الْوُحُوشُ تَحُومُ حَوْلَهُ مِنْ غُرُوبِ الشَّمْسِ إِلى شُرُوقِها ، فَلا تَجِدُ حِيلَةً لِلْوُصُولِ إِلَيْهِ .

وَكانَ مَيْمُونٌ بَيْنَ الْفَيْنَةِ وَالْأُخْرَى يَسْمَعُ زَئِيرَ فَهْدٍ وَقَدِ انْقَضَّ على أُرْوِيَّةٍ فَرَّتْ مِنْهُ إِلى جِوارِ الْكُوخِ تَطْلُبُ النَّجاةَ . فَيَقْشَعِرُّ جِلْدُهُ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ وَيَنْتَفِشُ شَعْرُهُ فَوْقَ رَأْسِهِ

وَيَتضاءَلُ في لِحافِهِ البالي وَيلْتفُّ فِيهِ كَمَا يَلْتَفُّ في رِيشِهِ الطّائِرُ الْوَلْهانُ . فَلَا تعودُ إِلَيْهِ طُمأْنينَتهُ إِلَّا عِنْدَ الصّباحِ .

وكانَ أَثْناءَ اللَّيْلِ يُسائِلُ نَفْسَهُ عَنْ حالَتِهِ هذهِ الشّاقَّةِ التي لَيْسَ فِيها مَرحٌ ولا سَعادَةٌ . فَيَضْجَرُ مِنْ وُجودِهِ في هــذا الْكَوْنِ . وَهَلْ لَهُ فِيهِ نَصيبٌ مِنْ خَيْرٍ ؟ أَيَّامهُ كُلُّها كَدٌّ وَتَعَبٌ ، وَلَيالِيهِ خَوْفٌ وَفَزَعٌ . تُرى ! لِماذا وَلَدَتْهُ أُمُّــهُ إِنْساناً ضَعيفاً وَلَمْ تَلِدْهُ فَهْداً قَوِيّاً شُجاعاً يَطْغَى على حَيَوَاناتِ الْغابِ كُلِّها وَيَقْهَرُها ؟ إِنَّ الْفَهْدَ لا يَكُدُّ ولا يَتْعَبُ مِثْلَهُ ، وَمَعَ ذلِكَ فَإِنَّهُ في سَعَةِ عَيْشٍ لا يَخْشَى جُوعاً ولا ينالُهُ خَوْفٌ . يُفْطِرُ بِالْأَرانِبِ وَيَتَغَدَّى بِالظِّباءِ وَيَتَعَشّى بِالْأَرَاوِيّ ، ولا يُعْرِضُ عَنِ الذِّئابِ وَالثَّعالِبِ إِلَّا لِأَنَّ طَعْمَ لَحْمِها لا يُعْجِبُهُ ، وَلكِنَّها تَحْتَرِمُهُ وَتَهابُهُ وَتَخْدُمُهُ . وَمَتى وَجَدَ إِلى الْإِنْسانِ سَبيلاً جَعَلَ مِنْهُ لِنَفْسِهِ وَلِيمَةً يَحْفَظُ ذِكْراها شُهوراً وَسِنِينَ .

وَفي لَيْلَةٍ مِنَ اللَّيالي اشْتَدَّتْ رَغْبَةُ مَيْمُونٍ في أَنْ يَكُونَ فَهْداً حَتّى إِنَّهُ قَفَزَ مِنْ لِحافِهِ وَرَفَعَ أَكُفَّهُ إِلى اللهِ وَابْتَهَلَ إِلَيْهِ وَدَعاهُ أَنْ يُحَوِّلَهُ مِنْ صُورَةِ إِنْسانٍ إِلى صُورَةِ فَهْدٍ قَوِيِّ الْعَضَلاتِ حادِّ



ميمون يسير وعلى رأسه تاج من الذهب

المَخالِبِ ثاقِبَ النَّظَرِ . فَما إنْ أَتَمَّ دُعاءَهُ حَتَّى هَبَّتْ عاصِفَةٌ هَوْجاءُ فَتَطايَرَتْ أَلْواحُ ٱلْكُوخِ وَتَناثَرَتْ في الغابَةِ . فَوَجَدَ مَيْمُونٌ نَفْسَهُ في ٱلْعَراءِ واقِفاً بَيْنَ الأَشْجارِ يَزْأَرُ وَقَدْ صارَ فَهْداً أَسْوَدَ لامِعَ الشَّعْرِ . فَقَفَزَ ذاتَ ٱلْيَمِينِ وَذاتَ الشِّمالِ لِيَخْبُرَ قُوَّتَهُ ، وَفَتَحَ فاهُ وَكَشَّرَ عَنْ أَنْيابِهِ وَأَخْرَجَ مَخالِبَهُ وَتَمَطَّطَ وَانْتَفَضَ ، ثُمَّ نَظَرَ حَوْلَهُ وَأَخَذَ يَتَلَمَّظُ بِلِسانِهِ وَكَأَنَّهُ يَسْتَعِدُّ لِأُكْلَةٍ شَهِيَّةٍ طالَما حَلُمَ بِها في حَياتِهِ الإِنْسانِيَّةِ . فَعَجِبَ لِحِدَّةِ بَصَرِهِ وَرَهافَةِ سَمْعِهِ وَخِفَّةِ جِسْمِهِ ، وَأَعْجَبَتْهُ حالَتُهُ كُلُّها ، فَحَمِدَ اللهَ وَشَكَرَهُ شُكْراً كَثِيراً ، ثُمَّ شَرَعَ في الصَّيْدِ .

فَمَرَّتْ بِهِ لَيالٍ وَأَيَّامٌ لا يَعْتَرِيهِ خَوْفٌ وَلا يُصِيبُهُ جُوعٌ . فَتَيَقَّنَ أَنَّ ٱلْفُهُودَ سادَةُ ٱلْكَوْنِ وَأَنَّهُ زَعِيمُها . لٰكِنَّ فَصْلَ الشِّتاءِ أَخَذَ يُوَلِّي ، فَصارَتْ أَصْواتُ ٱلْبَشَرِ تُسْمَعُ مِنْ حِينٍ لِآخَرَ حَوْلَ ٱلْغابَةِ ، وَحَتّى داخِلَها ، لا سِيَّما في النَّهارِ . فَكانَتْ نَفْسُ مَيْمُونٍ تُسَوِّلُ لَهُ ٱلْخُرُوجَ مِنْ عَرِينِهِ وَٱلْبَحْثَ عَنْ هٰؤُلاءِ الدُّخَلاءِ الَّذِينَ يَتَجَرَّؤُونَ عَلى اقْتِحامِ مَمْلَكَتِهِ . فَيَذْكُرُ مَيْمُونٌ أَصْلَهُ ٱلْبَشَرِيَّ وَيَنْهى نَفْسَهُ فَتَنْتَهِي إلى حِينٍ .

لكِنَّهُ في صَبيحَةِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الصَّيْفِ أَقْلَقَهُ في نَوْمِهِ ضَجيجُ رُعاةٍ صِغارٍ كانُوا مارِّينَ بِأَغْنامِهِمْ على غَيْرِ بُعْدٍ مِنَ ٱلْعَرِينِ . فَهَبَّ وَاقِفاً وكادَ يَنْطَلِقُ إِلَيْهِمْ دَفْعَةً وَاحِدَةً . لكِنَّهُ تَمالَكَ عَنْ ذلِكَ إِذْ أَحَسَّ في قَلْبِهِ بَقِيَّةً مِنْ أَحاسِيسِ الإِنْسانِ . فَمَكَثَ حَيْثُ كانَ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَشْعُرْ إِلَّا وَقَدْ نَدَّتْ مِنْهُ زَأْرَةٌ قَوِيَّةٌ دَوَّتْ لَها الْجِبالُ وَسَكَنَتِ ٱلْغابَةُ وفَرَّ الرُّعاةُ في هَلَعٍ تارِكِينَ مَواشِيَهُمْ تَهِيمُ على وَجْهِها وَهِيَ تَرْتَعِشُ مِنْ فَرْطِ ٱلْفَزَعِ . فَعادَ مَيْمُونٌ إِلى نَوْمِهِ بَعْدَ أَنْ حَرَّكَ شارِبَيْهِ وَمَشافِرَهُ وَافْتَرَّ افْتِراراً كانَ أَشْبَهَ شَيْءٍ بِالضَّحِكِ . وَقَلِيلاً قَلِيلاً اسْتَأْنَفَتِ الطُّيُورُ تَغارِيدَها على الْأَشْجارِ ناسِيَةً أَوْ مُتَناسِيَةً زَئِيرَ ٱلْفَهْدِ المُخِيفِ .

فَما إِنْ كانَ ٱلْغَدُ حَتَّى تَعالَتْ حَوْلَ ٱلْغابَةِ ضَوْضاءُ مِنْ صِياحِ النَّاسِ وَتَنابُحِ الكِلابِ . فَسَمِعَ مَيْمُونٌ تِلْكَ الْجَلَبَةَ مِنْ مَغارَتِهِ الَّتي كانَ جاثِياً فِيها يَهْضِمُ ما قَدِ افْتَرَسَهُ مِنَ اللَّحْمِ الطَّرِيِّ أَثْناءَ اللَّيْلِ . فَأَنْكَرَها وَتَعَجَّبَ مِنْ هذِهِ الْجُرْأَةِ . وَاشْتَدَّ عَجَبُهُ لَمَّا سَمِعَ صَوْتَ إِنْسانٍ يَقْتَرِبُ مِنْهُ شَيْئاً فَشَيْئاً وَهُوَ

يُرَدِّدُ : « ها هِيَ طَريقُ المَغارَةِ ، وَمِنْها خَرَجَ أَمسِ الزَّئيرُ » . فَتَيَقَّنَ مَيْمُونٌ أَنَّ بَعْضَ الصَّيَّادِينَ يَطْلُبُونَهُ . فَساوَرَهُ الْخَوْفُ وَاسْتَعْرَضَ فِي لَحْظَةٍ كُلَّ ما يَعْرِفُهُ مِنْ أَمْرِ الصَّيْدِ ، وَتَخَيَّلَ نَفْسَهُ طَريحاً عَلى أَوْراقِ الشَّجَرِ دامِيَ الْجِسْمِ مَنْهُوكَ القُوى يَلْفِظُ نَفَسَهُ الْأَخيرَ فِي أَلَمٍ لا يُطاقُ .

وَتَخَيَّلَ النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِ يَضْحَكُونَ وَيَتَشَفَّوْنَ وَيَرْكُلُونَ جُثَّتَهُ ، ثُمَّ يَحْمِلُونَهُ مَكْتُوفاً مِنْ أَرْجُلِهِ حَوْلَ هِراوَةٍ ضَخْمَةٍ ، فَيُجَرُّ ظَهْرُهُ الْأَرْقَطُ وَذَيْلُهُ الْجَميلُ عَلى الشَّوْكِ وَالْحَصى . يا لَها مِنْ مِيتَةٍ شَنيعَةٍ تَنْتَظِرُهُ ، وَيا لَهُ مِنْ هَوانٍ ! فَثارَتْ نَفْسُهُ وَتَوَتَّرَتْ أَعْصابُهُ وَانْتَفَخَتْ عَضَلاتُهُ وَهَمَّ أَنْ يَقْفِزَ مِنْ عَرينِهِ قَفْزَةً واحِدَةً وَيَزْأَرَ زَأْرَةً لَمْ يَزْأَرْ مِثْلَها قَطُّ وَيَنْقَضَّ عَلى مُطارِدِيهِ انْقِضاضَ الصّاعِقَةِ . هَمَّ أَنْ يَفْعَلَ ذلِكَ لكِنَّهُ تَذَكَّرَ قُدْرَةَ الرَّصاصِ عَلى الْفَتْكِ بِالسِّباعِ مَهْما تَكُنْ قُواها وَسُرْعَتُها .

فَتَرَزَّنَ وَهَدَأَ رَوْعُهُ وَأَدْرَكَ أَنَّ النَّجاةَ لَنْ تَكُونَ فِي الْهُجُومِ



ميمون ، وقد صار شمساً ، يرسل أشعته على سحابة كثيفة

العَنيفِ المُتهَوِّرِ ، لٰكِنَّها سَتكُونُ فِي السُّكُوتِ والفِرارِ المُتَسَتِّرِ الخَفِيِّ . فَجعَلَ ذَيْلَهُ بَيْنَ رِجْليْهِ وانسَلَّ مِنَ المغارَةِ زاحِفاً على بَطْنِه حَتَّى وَصَلَ جِذعَ شَجَرَةِ أرْزٍ ، فَتسَلَّقَها في لَمْحَةِ بَصَرٍ وامْتدَّ على طُولِ جِسْمِهِ فَوْق أَحدِ فُرُوعِها وأَمْسَكَ تَنفُّسَهُ حَتَّى لا يُسْمَعَ . فلَمَّا وَصَلَ الصَّيَّادُونَ قُرْبَ المَغارَةِ صَوَّبُوا بُنْدُقِيَّاتِهِمْ نَحْوَها وصارَ الصِّبْيانُ يَضْرِبُونَ بِقُضْبانٍ مِنْ حَديدٍ على صَفائِحَ وعُلَبٍ مِنَ القَصْديرِ كانُوا يَحْمِلُونَها ، وأَخذُوا يَصِيحُونَ ويَضِجُّونَ لِيَضْطَرُّوا الفَهْدَ الأَسْوَدَ إلى الخُرُوجِ . فَلَمْ يَبْلُغُوا مِنْ غايَتِهِمْ شَيْئاً .

تَقَدَّمَ أَحدُهُمْ إلى مَدْخَلِ المَغارَةِ مُسَدِّداً بُنْدُقِيَّتَهُ ، فَتَبِعَهُ آخَرُ ولَمَّ أَعْشاباً يابِسَةً كانَتْ هُناكَ وأَشْعَلَ فِيها النَّارَ . فَصارَتِ المَغارَةُ تَمْتَلِئُ دُخاناً ، لٰكِنْ لَمْ يَخْرُجْ مِنْها إلَّا خَفافِيشُ وأَنْواعُ مِنَ الحَشَراتِ فَعَلِمَ الصَّيَّادُونَ أَنَّ الفَهْدَ قَدْ فَرَّ مِنْها وأَنَّهُمْ لَنْ يَظْفَرُوا بِهِ فِي يَوْمِهِمْ ذاكَ . فَوَلَّوْا على أَعْقابِهِمْ فِي خَيْبَةِ أَمَلٍ ، وسَمِعَ مَيْمُونٌ أَحدَهُمْ يَقُولُ : « لَقَدْ أَفْلَتَ الخَبِيثُ ! » . فَأَجابَهُ آخَرُ : « لٰكِنَّهُ لَنْ يُفْلِتَ ما دُمْنا في طَلَبِهِ ! »

ثُمَّ خفتت الأَصْواتُ وعـــادَ إلى الغابَةِ سُكُونُها المُعْتادُ . فَتَنَفَّسَ مَيْمُونٌ الصُّعَداءَ ونَزَلَ مِنَ الأَرْزَةِ في حَذَرٍ ، ورَبَضَ قُرْبَها وأَخَذَ يُفَكِّرُ في حـــالِهِ ومَصِيرِهِ . فَحَنَّ إلى حياتِهِ الإِنْسانِيَّةِ الَّتي عرَفَها مِنْ قَبْلُ ، ووَدَّ لَوْ يَعُودُ إلى مِثْلِها حتَّى يُصْبِحَ في مَأْمَنٍ مِنْ مَكْرِ الصَّيَّادِينَ وبَطْشِهِمْ . لكِنَّهُ تذَكَّرَ ما كانَ يُعانِيهِ مِنْ تعَبٍ في سَبيلِ العَيْشِ وما كانَ يَشْعُرُ بِـهِ مِنْ خَوْفٍ في ظَلامِ اللَّيْلِ .

وبَعْدَ تفْكِيرٍ طَويـــلٍ وتَأَمُّلٍ عَميقٍ لِلْوُجودِ وأَسْرارِهِ ، خطَرَ لَهُ أَنْ يَدْعُوَ اللهَ عَساهُ أَنْ يُعِيدَ إِلَيْهِ طَبيعَتَهُ البَشَرِيَّةَ في صُورَةِ رَجُلٍ قَوِيٍّ غَنِيٍّ لَا يَخافُ هَـــوْلاً ولَا يَخْشَى فَقْراً . فابْتَهَلَ وتَضَرَّعَ وبَكَى ، فَإِذَا بِهِ إِنْسانٌ يَمْشِي على قَدَمَيْنِ وبِيَدِهِ صَوْلَجانٌ وعلى رَأْسِهِ تاجٌ مِنَ الذَّهَبِ المُرَصَّعِ بِالْجَواهِرِ الفَاخِرَةِ . فَعلِمَ أَنَّهُ مَلِكٌ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيا ، وحارَ في أَمْرِهِ إِذْ نَظَرَ مِنْ حَوْلِهِ فَلَمْ يَرَ إِلَّا الشَّجَرَ . فَكادَ يَغْضَبُ عَلَيْهـــا لِأَنَّها لَمْ تَسْجُدْ لَهُ ولَمْ تَنْحَنِ .

ثُمَّ ما لَبِثَ أَنِ اسْتَرْجَعَ رُشْدَهُ وعَزَمَ أَنْ يَقْصِدَ المَدِينَةَ

لِيَتَرَبَّعَ على العَرْشِ فِيها ويُبايِعَهُ النَّاسُ . لكِنَّ المَدِينَةَ كانَتْ جِدَّ بَعِيدَةٍ جِدَّ بَعِيدَةٍ . فَتَوَجَّهَ نَحْوَها عازِماً على وُصُولِها في يَوْمِهِ . وكانَ اليَوْمُ ذا حَرٍّ مُفْرِطٍ . فَما سارَ مَيْمُونٌ بِضْعَةَ أَمْيالٍ حَتَّى اشْتَدَّ عَلَيْهِ القَيْظُ وبَلَغَ مِنْهُ التَّعَبُ وأَدْرَكَهُ العَطَشُ. فَصارَ جَبِينُهُ يَتَفَصَّدُ عَرَقاً مِنْ تَحْتِ تاجِهِ الذَّهَبِيِّ الثَّقِيلِ ، وتَمَجَّلَتْ قَدَماهُ في حِذائِهِ الأَنِيقِ . فَخَلَعَ عَنْهُ رِداءَهُ الغَلِيظَ المُزَرْكَشَ وجَعَلَهُ على رَأْسِهِ لِيَتَّقِيَ بِهِ حَرارَةَ الشَّمْسِ الوَهَّاجَةِ، فَلَمْ يَنْفَعْهُ ذلِكَ في شَيْءٍ . فَجَلَسَ عَلَى الأَرْضِ لِيَسْتَرِيحَ، وعادَ إِلى تَفْكِيرِهِ وتَأَمُّلِهِ ، فَتَيَقَّنَ أَنَّ الإِنْسانَ ضَعِيفٌ وأَنَّ المُلُوكَ أَضْعَفُ النَّاسِ جَمِيعاً وأَقَلُّهُمْ قُدْرَةً على تَحَمُّلِ المَتاعِبِ والآلامِ لِما يَتَعَوَّدُونَهُ مِنْ حَياةٍ ناعِمَةٍ ومِنَ الاِعْتِمادِ على الغَيْرِ . فَمَهْما يَعْظُمْ سُلْطانُهُمْ ومَهْما يَبْلُغْ جَبَرُوتُهُمْ فَهُمْ مُعَرَّضُونَ لِما يَتَعَرَّضُ لَهُ سائِرُ الخَلْقِ. فَفِيمَ تَنْفَعُهُمْ تِيجانٌ لا تَقِيهِمْ حَتَّى مِنْ حَرارَةِ الشَّمْسِ ؟ وفِيمَ تَنْفَعُهُمْ سَطْوَةٌ لا تَرُدُّ حَتَّى هَجِيرَ الصَّيْفِ ؟

إِنَّ المُلْكَ لِلَّهِ الواحِدِ القَهَّارِ ، إِنَّهُ هُوَ المُنَزَّهُ القادِرُ على كُلِّ شَيْءٍ . وهُوَ الَّذِي خَلَقَ حَتَّى هذِهِ الشَّمْسَ المُحْرِقَةَ الَّتِي تُطِلُّ



ميمون وقد تحوّل الى سحابة

على النَّاسِ مِنْ علٍ ، فَلا يَجِدُونَ لَها حِيلة .

خطَرَتْ لِمَيْمُونٍ هـذِهِ الخَواطِرُ فراوَدَتْه رَغْبَةٌ جدِيدَةٌ غَرِيبَةٌ ، أَلا لَيْتَهُ شَمْسٌ تَسْطَعُ فِي السَّماءِ وتُضِيءُ الكَوْنَ كُلَّهُ وتَبْعَثُ فِيهِ الحَياة ! أَيْنَ قُوَّةُ المُلُوكِ جَمِيعِهِمْ مِنْ قُوَّةِ الشَّمْسِ ؟ إِنَّها مَلِكَةُ الدُّنيا تَتَحَكَّمُ فِي وُجودِ المَخْلُوقاتِ كُلِّها ! أَلَمْ تُرْغِمْهُ على الوُقُوفِ عَنْ مَسِيرَتِهِ نَحْوَ عَرْشِهِ ؟ لا ، لَا واللهِ ! إِنَّـهُ لَا يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ مَلِكاً ! بَلْ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ شَمْساً تَعْلُو النَّاسَ والجِبالَ والبِحارَ ، تَعْلُو البَسِيطَةَ وتَتَنَزَّهُ عَلَيْها . فَاسْتَقْبَلَ مَيْمُونٌ القِبْلَةَ وأَغْمَضَ عَيْنَيْهِ وتَمَنَّى أَنْ يَجْعَلَهُ اللهُ شَمْساً .

وفِي الحِينِ لَاحَتْ لَهُ جِبالُ آسِيا الشَّاهِقَةُ وانْبَسَطَتْ مِنْ تَحْتِهِ المُحِيطَاتُ على طُولِها وعَرْضِها . فَعلِمَ أَنَّ أُمْنِيَّتَهُ قَدْ تَحَقَّقَتْ وأَنَّهُ صارَ شَمْساً . يا عَجَباً ! ما أَجْمَلَ الأَرْضَ حِينَ تُنْظَرُ مِنْ فَوْق ! تِلْكَ زُرْقَةُ البَحْرِ المَائِجِ تَتَخَلَّلُها صُهْبَةُ البَرِّ والصَّحْراءِ . وتِلْكَ خُضرَةُ الغَابِ يَلْمَعُ فِي وَسَطِها بَياضُ الثُّلُوج على القِمَمِ العَالِيَةِ . وَأَيْنَ البَشَرُ ، مـا أَصْغَرَهُمْ ، حَتَّى أَنَّهُمْ

لا يَكادُون يُرونَ ! وأينَ السِّباعُ وأينَ الفِيَلَةُ ؟ لقدْ صارَ كلُّ ذلكَ تحتَ رحمةِ ميمونٍ ، لوْ يشاءُ يُحرِقُهُ في طرْفةِ عيْنٍ. فتنزَّهَ ميمونٌ مِنْ عرشِهِ السَّماويِّ على بدائعِ الكوْنِ محدِّقاً إلى الأرْضِ يَلْحظُ فيها كلَّ شيْءٍ .

فبيْنَما هوَ ينظُرُ إحدى الغاباتِ إذا بالسُّحُبِ تتلبَّدُ فوْقَها وتُخْفِيها . فأرْسَلَ ميْمونٌ عليْها أشِعَّتَهُ وحاولَ أنْ يُبدِّدَها . فازْدادتِ السُّحُبُ كثافةً وسَواداً . فغضِبَ ميْمونٌ وسوَّلتْ لهُ نفسُهُ أنْ يحرِقَ الأرْضَ وما عليْها . فشهِدَ النَّاسُ في ذلكَ اليوْمِ حرارةً كادتْ تُزْهِقُ الأرْواحَ ، واحترقَ ورقُ الأشْجارِ في مناطِقَ كثيرةٍ ولبدَتِ الوُحوشُ في مخابئِها لاهِثةً عطْشى . لكِنَّ السَّحابَ فوْقَ الغابةِ ما كانَ لِينقشِعَ ، بلْ ثبتَ حيْثُ هوَ وكأنَّهُ يسْخَرُ مِنَ الشَّمْسِ ويتحدَّاها . فأدْركَ ميْمونٌ أنَّ لِلسَّحابِ قُوَّةً ما بعْدَها مِنْ قُوَّةٍ . وحالاً رغِبَ إلى اللهِ أنْ يجْعلَهُ سحاباً . فهوى في الفضاءِ كالنَّجْمِ وشعَرَ بتراخٍ في هيْكلِهِ وانحِلالٍ وتبخُّرٍ . وإذا بِهِ سحابٌ كثيفٌ أسْودُ يسْبحُ في الفراغِ . فسمِعَ لهُ النَّاسُ قهْقهةً كالرَّعْدِ ورأوْا وميضَ

ضحكِهِ في شَكلِ بَرْقٍ أَوْشَكَ أَنْ يَخْطَفَ أَبْصارَهُمْ : إِنَّ حالَةَ السَّحابِ لَحالَةٌ وَاللهِ عَجيبَةٌ ! فِيها خِفَّةٌ وَفِيها قُدْرَةٌ على الصُّعُودِ وَالنُّزُولِ لا يَمْلِكُها حَتَّى كَواسِرُ الطَّيْرِ مِنْ نُسُورٍ وَعُقْبانٍ ! اغْضَبي يا شَمْسُ وَثُوري ! سَأُخْفِي عَنْكِ كُلَّ مَنْظَرٍ جَميلٍ !

فَظَلَّ مَيْمُونٌ يَتَمَلَّى خِفَّتَهُ وَيَبْسُطُ جَناحَهُ القاتِمَ المُظْلِمَ تارَةً نَحْوَ اليَمينِ وَطَوْراً نَحْوَ الشِّمالِ ، يَتَقَدَّمُ مَرَّةً وَيَتَأَخَّرُ مَرَّةً ، لا يَحْفِزُهُ حافِزٌ ولا يَحْجِزُهُ حاجِزٌ ، فَسُرَّ لِحالِهِ سُرُوراً شَديداً وَاسْتَقَرَّ رَأْيُهُ عَلى أَنْ يَبْقَى سَحاباً . لكِنَّ سُرُورَهُ لَمْ يَدُمْ إِلاَّ بُرْهَةً وَجيزَةً ، ذلِكَ أَنَّ الرُّخاءَ اللَّيِّنَةَ اللَّطِيفَةَ الَّتي كانَتْ تَدْفَعُهُ في رِفْقٍ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُ أَخَذَتْ تَتَحَوَّلُ شَيْئاً فَشَيْئاً إِلى ريحٍ عَنيفَةٍ تُثيرُ العَجاجَ . فَأَحَسَّ مَيْمُونٌ بِاضْطِرابٍ في حَرَكاتِهِ وَتَقَطُّعٍ في أَوْصالِهِ . وَما إِنْ فَطِنَ لِتَغَيُّرِ حالِهِ حَتَّى ذَهَبَتْ نُتافاتُهُ أَدْراجَ العاصِفَةِ كَالصُّوفِ المَنْفُوشِ ، يا لَلْفاجِعَةِ ! يا لَلْكارِثَةِ ! إِنَّ فَوْقَ كُلِّ ذي قُوَّةٍ قَوِيّاً ! وَالرِّيحُ أَقْوَى مِنَ



ميمون وقد صار ريحاً عاصفة تدمّر كل ما يعترض سبيلها

السَّحابِ تُسَيِّرُهُ حَيْثُ تَشاءُ ، لا تَتْرُكُ لَهُ خِياراً ، وَتُشَتِّتُ شَمْلَهُ إِنْ طابَ لَها ذٰلِكَ .

ها هُوَ مَيْمُونٌ مُشَرَّداً هائِماً عَلى وَجْهِهِ وَقَدْ غُلِبَ عَلى أَمْرِهِ . فَلَمْ تَهْدَإِ الْعاصِفَةُ حَتَّى جَعَلَتْهُ أَشْلاءً مُمَزَّقَةً مُبَدَّدَةً . وَلَمَّا عادَتِ السَّكِينَةُ إِلى الفَضاءِ تَجَمَّعَتْ قِطَعُ السَّحابِ مِنْ جَديدٍ ، يَشْكُو بَعْضُها إِلى بَعْضٍ ما تَعَرَّضَ لَهُ مِنْ عُنْفٍ وَما أَصابَهُ مِنْ مِحْنَةٍ . وَسَرْعانَ ما تَفَقَّدَ مَيْمُونٌ جَوانِبَهُ ، فَوَجَدَها مَرْضُوضَةً مَهْدُودَةً . فَحَمِدَ اللهَ عَلى أَنْ نَجَّاهُ مِنَ الْهَلاكِ وَابْتَهَلَ إِلَيْهِ وَأَكْثَرَ الدَّعَواتِ لَعَلَّهُ يَسْتَحِيلُ مِنْ حالِ سَحابٍ مُعَلَّقٍ في الْهَواءِ إِلى حالِ ريحٍ عاصِفَةٍ . فَلَبَّى اللهُ رَغْبَتَهُ وَمَنَحَهُ قُوَّةً لَمْ يَمْنَحْها قَطُّ ريحاً مِنْ قَبْلِهِ .

فَانْتَشَى مَيْمُونٌ بِقُوَّتِهِ الْعَجيبَةِ وَابْتَهَجَ بِسُرْعَتِهِ ، وَأَيْقَنَ أَلَّا ثَباتَ لِشَيْءٍ أَمامَهُ مَهْما يَكُنْ صُمُودُهُ . فَتَتَبَّعَ السُّحُبَ حَيْثُما كانَتْ وَبَدَّدَها تَبْديداً ، وَلَطَمَ الْأَمْواجَ بَعْضَها بِبَعْضٍ وَأَثارَ فِي الصَّحارِي عَجاجاً يَتَصاعَدُ فِي السَّماءِ . ثُمَّ هاجَمَ أَشْجارَ

الغاباتِ فَحطَّمَها تحطِيماً وَقَلَّعَ مِنْها ٱلكثِيرَ وَجعَلَها مُتراكِمَةً بَعْضَها فَوْقَ بَعْضٍ وَكأَنَّها جُنودٌ صَرْعَى لَقُوا حَتْفَهُمْ بَعْدَ قِتالٍ عَنِيفٍ .

لكِنَّ أَرْزَةً مِنْ أَرْزِ « عَيْنِ اللَّوْحِ » لَمْ تَعْبأْ بِمَيْمُون وَلَمْ تَكْتَرِثْ لَهُ . كانَتْ غَليظَةَ الجِذْعِ وَٱلْفُرُوعِ ، لا يُزَعْزِعُها هُبُوبُ رِيحٍ ولا يَثْنِيها تَرَاكُمُ ثَلْجٍ ؛ وَحَسْبُها فَخْراً أَنَّها تُطاوِلُ الدَّهْرَ مُنْذُ مِئاتِ السِّنِين . كانَتْ جُذُورُها سارِحَةً تَحْتَ الأَرْضِ مُلْتَوِيَةً على الصُّخُورِ مُتَشَبِّثَةً بِها . فَرَكَّزَ مَيْمُونٌ عَلَيْها جُهْدَهُ حَتَّى أَتى على كُلِّ شَيْءٍ مِنْ حَوْلِها .

وَمعَ ذٰلِكَ لَمْ يَنَلْ مِنْها قَلِيلاً ولا كَثِيراً . فَبَقِيَتْ حَيْثُ هِيَ مُنْتَصِبَةً مَرْفُوعَةَ الرَّأْسِ كَأَنَّها تَتَحَدَّاهُ وَتَهْزَأُ بِهِ . فَاغْتاظَ مَيْمُونٌ وَأَعادَ الكَرَّةَ بِدُونِ جَدْوَى ، ثُمَّ أَعادَها وَأَعادَها حَتَّى يَئِسَ وَاسْتَسْلَمَ وَانْبَسَطَ في الفَضاءِ الشَّاسِعِ لِيَسْتَرِيحَ .

فَلَمَّا سَكَنَ غَضَبُهُ رَجَعَ إِلى اللهِ مَرَّةً أُخرى وَصارَ يَدْعُوهُ عَسَى أَنْ يُحَوِّلَهُ إِلى أَرْزَةٍ . فَما إِنْ أَتَمَّ دُعاءَهُ حَتَّى ٱلْتَوَى على

نَفْسِهِ فِي شَكْلِ زَوْبَعَةٍ تَمْتَدُّ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى عَنانِ السَّماءِ ثُمَّ انْغَرَسَتِ الزَّوْبَعَةُ عَلَى قِمَّةِ جَبَلٍ ؛ فَوَجَدَ مَيْمُونٌ نَفْسَهُ مُشْرِفاً عَلَى سُهُولٍ مُتَرامِيَةِ الْأَطْرافِ ، وَقَدْ صارَ أَرْزَةً . فَأَعْجَبَهُ الْمَوْقِعُ وَأَعْجَبَهُ ارْتِفاعُ فُرُوعِهِ فِي السَّماءِ وَرُسُوخُ جُذُورِهِ فِي الْأَرْضِ ، فاطْمَأَنَّ لِحالِهِ وَسَرَّهُ أَنْ يَنْتَسِبَ إِلَى شَجَرِ الْأَرْزِ الْخالِدِ الَّذِي يَصْمُدُ فِي وَجْهِ الرِّياحِ الْعاصِفَةِ وَيَسْتَخِفُّ ثِقَلَ الثُّلُوجِ وَيَنْظُرُ شَزْراً حَتَّى إِلَى الزَّمانِ .

ما أَعْظَمَكَ يا أَرْزُ وَما أَشْجَعَكَ وَما أَجْمَلَكَ ! لَنْ يُصابَ مَيْمُونٌ بَعْدَ الْآنِ بِمُصابٍ ، وَسَيَظَلُّ ها هُنا مُطِلاًّ عَلَى تِلْكَ الْأَراضِي الشَّاسِعَةِ ما بَقِيَ الدَّهْرُ ، لِأَنَّ الْأَرْزَ حَلِيفُ الدَّهْرِ . فَباتَ مَيْمُونٌ لَيْلَتَهُ فِي غَمْرَةٍ مِنَ الْفَرَحِ وَالْابْتِهاجِ كَأَنَّ الْأَرْزَ لَمْ يُخْلَقْ مِنْ قَبْلُ . وَلَمَّا أَصْبَحَ الصَّباحُ نَفَضَ عَنْهُ سُباتَ اللَّيْلِ فِي هِزَّةٍ قَوِيَّةٍ تَحَرَّكَ لَها الْجَبَلُ مِنْ تَحْتِهِ . فازْدادَ إِعْجاباً بِقُوَّتِهِ وَنَشَرَ أَوْراقَهُ فِي الْهَواءِ لِتُهَدْهِدَها رُخاءُ الصَّباحِ الْخَفِيفَةُ الرَّقِيقَةُ .

لكِنْ ... لكِنْ ، ما هذهِ الْوَخزاتُ التّي يُحِسُّ بها مَيْمُونٌ في جَنْبِهِ ؟ ما هذهِ الْوَخزَاتُ !؟ وَما هذَا الطَّنِينُ الَّذي يُسْمَعُ عِنْدَ كُلِّ وَخْزَةٍ ؟ عَجَباً ، لَقَدْ أَصْبحَ الْوَخْزُ حَزّاً لاذِعاً مُؤْلِماً ! اضْطَرَبَ مَيْمُونٌ اَضْطِرَاباً شَدِيداً إِذْ عَلِمَ أَنَّ تِلْكَ الْوَخزَاتِ لَيْستْ إِلَّا ضَرَباتُ فَأْسٍ ماضِيَةٍ . إِنَّهُ الْحَطَّابُ ، قَدْ جَاءَ لِيَقْطَعَ الْأَرْزَةَ الشَّامِخَةَ الفَخُورَ ! أَيْنَ المَفَرُّ ؟ أَيْنَ المَفَرُّ ؟ فَرَدَّ مَيْمُونٌ أَمْرَهُ إِلَى اللهِ مَرَّةً أُخرَى ، وَتَمَنَّى بِجَمِيعِ قُوَاهُ لَوْ تُعَادُ إِلَيْهِ صُورَتُهُ الْأَوْلَى لِيَكُونَ حطَّاباً كَمَا كَانَ مِنْ قَبْلُ .

فَمالَتْ بِهِ الأَرْضُ وَأَحسَّ بِدُوَارٍ عَنِيفٍ ، وَتَقَلَّصَتْ قامَتُهُ الطَّوِيلَةُ وَانْغَلَقَتْ أَمامَهُ الآفَاقُ ... ثُمَّ فَتَحَ مَيْمُونٌ عَيْنَيْهِ ، فَوَجَدَ نَفْسَهُ مَطْرُوحاً على صَخْرَةٍ وَإِلى جَانِبِهِ فَأْسُهُ وَمِنْشَارُهُ ، كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَطُّ فَهْداً أَسْوَدَ وَلَا مَلِكاً مُتَوَّجاً ، وَلَا شَمْساً ساطِعَةً وَلَا سَحاباً مُلَبَّداً ، وَلَا رِيحاً عاصِفَةً ، وَلَا أَرْزَةً مُتَكَبِّرَةً .

إِنَّهُ مَيْمُونٌ ! مَيْمُونٌ الْحَطَّابُ ! رُدَّتْ إِلَيْهِ صُورَتُهُ الْبَشَرِيَّة وَرُدَّتْ إِلَيْـــهِ فَأْسُهُ وَرُدَّ إِلَيْهِ مِنْشارُهُ . فَأَقْسَمَ بِمُحْرِجاتِ الأَيْمانِ أَنَّهُ لَنْ يَرْضَى لِحَالِهِ الإِنْسَانِيَّةِ بَدِيلاً وَأَنَّـهُ لَيَمْلأَنَّ هذِهِ الأَرْضَ بَنِيناً وَأَحْفاداً ، وَلِيُعَلِّمَنَّهُمْ جَمِيعاً أَنَّ الإِنْسانَ العَامِلَ أَقْوَى المَخْلُوقاتِ كُلِّها .

فَتَزَوَّجَ مَيْمُونٌ مِنْ عامِهِ ، فَوُلِدَ لَهُ بَنُونَ وَبَناتٌ كَثِيرٌ حَتَّى أَصْبَحَتِ الغَابَةُ آهِلَةً بالسُّكَّانِ ، فَسَمَّوْا قَرْيَتَهُمْ بِقَرْيَــةِ « عَيْنِ اللَّوْحِ » . فَلا تَنْسَ اسْمَ تِلْكَ القَرْيَةِ ، أَيُّها الوَلَدُ ، وَزُرْهَا فِي فَصْلِ الصَّيْفِ إِنْ سَنَحَتْ لَكَ الفُرْصَةُ .

القصص المدرسية

- الهميان المفقود
- الاخوة الثلاثة
- الأميرة المظلومة
- مغامرات ذكي
- الأميرة في القصر المسحور
- التاجر والعفريت
- الأخلاق الفاضلة
- شرفنطح البليد
- الفرحة الكبرى
- عجائب السندباد
- الكيس العجيب
- الحطاب الطموح
- الرّبوة السّعيدة

نشر : دار الثقافة - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الدار التونسية للنشر